دار الكتب الكبرى

في بيروت

رغب اليَّ حضرة صديقي العلاّمة السيّد محمد كرد علي رئيس المجمع العلميّ العربيّ في دمشق ان أُنشئ مقالة تتضمن تاريخ دار الكتب الكبرى في بيروت منذ تأسيسها الى الان لينشرها في مجلة المجمع الشار اليه . وغايةُ النبيلة من نشرها اذاعة اسم هذا المعهد الكتابي الحديث النشأة بين اهل الفضل والأدب شرقاً وغرباً . فلبّيتُ عليَّ اجابة طلبه مع اسداء الشكر لأريحيّته وفّقه الله لاعلاء منار المعارف بين الناطقين بالضاد فاقول :

ان فكرة تأسيس دار الكتب في بيروت جالت في خاطري منذ نيف وثلاثين سنة . فكنتُ أسعى سعياً حثيثاً لتحقيق هذه الأمنية ضناً بكرامة المدينة المذكورة وصيانةً لمقامها العلمي بين سائر البلدان السورية . فعرضتُ الأمر كتابةً وشفاهاً على الحكّام الذين تولّوا شؤون ولايتنا وكان لي بعض العلاقات معهم كنصوحي بك ورشيد باشا وخليل باشا وعزمي بك مبيّناً لهم الفوائد الناجمة عن هذا المشروع الحيوي وان شهرة بيروت الأدبية تقضي باخراج هذا الفكر الى حيّز العمل تسهيلاً لنشر المعارف بين جميع طبقات الشعب ولا سيما الذين لا يساعدهم مركزهم المالي على اقتناء الكتب . فكان منهم ان استحسنوا ذلك واعدين بعرضه على الباب العالي ليكتسب المشروع صبغة رسمية . وكانت تتبدّل الحكّام وتمرّ الايام والأعوام دون جدوى . ولعلّ السياسة في ذلك العصر وخصوصاً في عهد السلطان عبد الحميد كانت حائلاً دون ترقّي شعبنا الى مستوى الشعوب الغربية . لان السلطان المشار اليه كان يوجس خيفةً من كل مجتمع يضمّ بين دفّتيه أرباب النهضة وحملة الأقلام المفكرين

ولم تتحقّق الأماني الأ بعد الاحتلال الفرنسيّ لسوريا ولبنان باربعة عشر شهراً . اي على اثر وصول الجنرال غورو الى بلادنا بايام قليلة . فاني فاوضتُ المفوضية العليا الفرنسية ونظمتُ لها التقارير الوافية بهذا الشأن . فأبدت ارتياحها الى ذلك ونشطتني

الى مباشرة العمل تحت رعايتها واعدةً اياي بالمساعدات اللازمة نظرا لتوفر المال آنئذ في صندوقها

فاستنادًا الى ذلك كله باشرتُ بعون الله تأسيس دار الكتب في شهر كانون الاوّل ١٩١٩ غير هيّاب لما عسى ان يعترض مشروعي من العقبات الكثيرة . لان رائد ارادتي ورغبتي كان لزيادة انماء المعارف في الوطن بواسطة هـذا المعهد الجزيل الفائدة . وقد جعلتُ بيتي بادئ بدء مركزًا موقتًا للعمل ريثما يتسنى الحصول على مركز لائق وموافق . واخذتُ اشتغل بلا ملل لبلوغ الغاية المقصودة في حين ان السواد الأعظم من أبناء الوطن كانوا يتطاحنون في مضمار السياسة . ولكني حذراً من فشل المشروع واختناقه في المهد أخفيتُ الأمر عن كل انسان مدة الاشهر العشرة الأولى . وصرتُ أعمل سرًّا في تجهيز كل مقتضيات المكتبة حتى وثقتُ من نجاحها وثبات ثمرتها في مستقبل الزمان . وحقيقةً ان ما كنتُ احذر منه واتوقعه قد تمَّ بالفعل لانه عندما اذاعت الصحف في شهر ايلول ١٩٢٠ نبأ تأسيس دار الكتب أخذ بعض الذين لا مبدأ ولا خلاق لهم من عشّاق الوظائف وعبّاد المال يطرقون أبواب المفوضية متزلّفين ليُعهد اليهم بادارة المكتبة . وشرع بعضهم يعاكس مساعي بكل الوسائل والبعض يستصغر عقلي والبعض الآخر يجتهد في تحويل اهتمامي عن مشروع ليس لي منه اقل فائدة مادية . لاني لبثتُ سنتين وخمسة اشهر اشتغل بلا راتب خلافًا لسائر عمّال الحكومة

فكنتُ اقضي هزيعًا من الليل منصرفًا الى مراسلة المؤلّفين والمحافل العلمية ورؤساء الحكومات واصدقائي العديدين في البلدان البعيدة لمساعدة مشروعي . وفي النهار كنتُ أزور اهل الفضل وأرباب المطابع ورؤساء المدارس وذوي المكانة الأدبية . فجمعتُ منهم بمثابة هدايا ما وصلت اليه يدي من الآثار المطبوعة والخطوطة التي ملأت جانبًا كبيرًا من غرف بيتي وعددها يربو على ثلاثة آلاف مجلد . وفي خلال ذلك لم افتر من التفتيش عن مكان يُتخذ مركزًا لدار الكتب في ناحية متوسطة من المدينة . فتوفّقت بعد العناء الطويل الى اختيار المركز الحالي في نهاية المدرسة الروسية سابقًا وربتا بتهيأ الحكومة ان تشيد لهذا المعهد بناءً مستقلاً على

الطراز الشرقي تتوفر فيه كل الحسنات العصرية

وفي غرة كانون الثاني ١٩٢١ انشأت دار الكتب رسميا وعينت لها بالاتفاق مع المفوضية العليا ثلاثة مأمورين مندوبين بالأمانة والغيرة والعلم يعاونوني في القيام باعباء هذه الخدمة الشريفة . اخص منهم بالذكر حضرة الشاعر المطبوع الياس افندي حنيكاتي الذي لا يسعني الا الثناء عليه ما أبداً من جزيل الهمة والتفاني في سبيل انهاء المكتبة . ولم تمض ثلاثة اشهر على انشائها حتى صارت بهجة للناظرين بما حوته من الرياش والآثار النفيسة التي جمعتها من أهل الأريحية او مما أمكنني الاستغناء عنه في بيتي . ثم أهديت اليها القسم الأوفر من نوادر الكتب الموجودة في خزائني والتي قضيت معظم حياتي في اقتنائها . ولبثت اتحمل وحدي جميع نفقات المكتبة منذ تأسيسها حتى تبرعت عليها المفوضية العليا الفرنسية في ٣ اذار ١٩٢١ بالف ليرة سورية مصرحة بانها لا تستطيع اسعافها باكثر من هذا المبلغ . ثم لم تلبث ان صرحت ايضا الى حاكم لبنان الكبير بان المكتبة انتقلت من عهدتها من بداءة التاريخ المذكور وصارت تابعة للحكومة اللبنانية

فوقعت حكومة لبنان الكبير في حيرة من هذا الامر لان ميزانيتها كانت خالية من مخصصات مالية لدار الكتب . وطالت المفاوضات بين المفوضية العليا والحكومة اللبنانية وبقي مدة أشهر عديدة لحل هذه القضية الى ان أقرت دولة لبنان الكبير على الاعتراف بالمكتبة رسمياً . وكان في اثناء ذلك قد نفد مبلغ الالف ليرة سورية المذكورة فعدت الى الانفاق على المكتبة من جيبي الخاص وصرت اتكبد في سبيلها التضحيات العظيمة خدمة للعلم والوطن . ولولا عوامل الثبات التي كانت تتجدد وتتوطد في نفسي لدخل هذا المشروع في خبر كان وطواه الزمان

وفي ٨ كانون الاول ١٩٢١ سجلت لدى كاتب العدل « الفوتير » دار الكتب مع كل محتوياتها لحكومة لبنان الكبير تأميناً لحقوقها وحذراً من ان مت بلا بد آتية . وان قلقي من هذا القبيل بتسليمها الى حكومة تتعهدها دائما بالعناية وتشملها بالوقاية . وصارت دار الكتب من التاريخ المذكور منوطة بنظارة المعارف العمومية . وقد أدت لي الحكومة حينئذ ما كنت قد دفعته سلفاً من رواتب المأمورين وبعض

النفقات . ولم انشأ ان اتقاضى بدلا عن اتعابي بارة واحدة لان عايتي كانت مجردة خدمة الوطن العزيز

ثم فكرت في الوسائل الآيلة لنجاح المكتبة واقبال الزوار عليها . فرأيت ان ذلك لا يتم الا باستمالة نفائس الكتب القديمة والحديثة على اختلاف مواضيعها من اوربا . فسافرت في ١٤ كانون الاول سنة ١٩٢١ متزودا برسالة توصية من حضرة القومندان ترابو حاكم لبنان الكبير الى مدير المكتبة الأهلية في باريس . وصادف هناك حينئذ وجود حضرة الجنرال غورو المفوض السامي الفرنسي لسوريا ولبنان . فعرفني الى بعض المراكز الرسمية التي اكرمت وفادتي وسهلت لي ما كنت ابتغي الوصول اليه . ولحسن الطالع كانت لي علائق سالفة مع كثير من حملة الأقلام الفرنسيس وبعض الجمعيات العلمية التي لا ازال عضوا فخريا فيها . فاستطعت بهذه الوسائل من المفاوضة رأسا مع الوزارات والمحافل العلمية ودور الكتب والمدارس الجامعة وكبار المؤلفين وأرباب المطابع وأمناء المتاحف وذوي الشهرة في عالم الأدب

ولقد أقمت بمدينة باريس اربعة اشهر كاملة لم أذق في خلالها لذة الراحة . لاني كنت في النهار اطوف المدينة من أقصاها الى أقصاها زائرا من سبق ذكره لأحملهم على الاهتمام بالمشروع الآنف الذكر . وأقضي قسما من الليل في مراجعة فهارس الكتب لأختار منها الأوفر فائدة لقراء بلادنا . وقد بلغ عدد الزيارات التي قمت بها نحو الألف وعدد الرسائل التي كتبتها ستمائة رسالة او تزيد دون أدنى مبالغة . وكنت لا أملّ من ذلك لتيقني بان النتيجة عائدة لخير بلادي

وبعد هذا العناء العظيم تكللت مساعي بالنجاح الذي كنت أتوقعه . فبعثت من التقادم الى دار الكتب الكبرى في بيروت ما عدا الرزم البريدية بمائه واربعة عشر صندوقا تحتوي على زهاء اثني عشر الف مجلد في جميع العلوم البشرية . وقد دفعت بكثير من تحف الغاية الثمن كأدوات مركز للبرق اللاسلكي ومروحه كهربائية وآلات طبيعية وكرات أرضية وفلكية . وجلبت ايضا مجموعات خرائط تتعلق بعلم النبات وعلم الحيوان وعلم طبقات الارض وعلم التشريح الطبي وعلم الجغرافيا الخ . حتى ان المعرمين العلوم والباحثين يجدون فيها ما يرغبون في الاطلاع عليه من

كل علمٍ وفنٍّ وخصوصاً ما كان مدارُه العلوم الشرقية

ويقدّر العارفون قيمة ما حصّلتهُ من عاصمة الفرنسيس بنحو خمسمائة الف فرنك لم تتكلّف عليها حكومتنا اللبنانية شيئًا سوى نفقات النقل وثمن صناديق الشحن . لاني سافرت على حسابي الخاص وأحرزتُ كل هذه الكنوز العلمية والفنية بمثابة هدايا الى معهدنا الكتابيّ البيروتي

ولما عدت الى بيروت في ٢٧ نيسان سنة ١٩٢٣ رأيت دار الكتب التي عانيتُ عرق القُربة في سبيل تأسيسها وتنسيقها قد أصبحتْ في حالة يُرثى لها من الخلل وعدم الترتيب والنظافة . ثم علمتُ ان اثنين من المأمورين الثلاثة الذين كانوا قائمين بحراستها وخدمتها بكل امانةٍ ونشاط قد تركاها غير عالَمين ما تؤول اليهِ حالتُها . فلم يثبت منهم الاّ المأمور الثالث وهو أصغرهم سنًّا واقلّهم راتبًا . لان ناظر المعارف السابق عمد بعد سفري الى هذا التدبير حبًّا بالاقتصاد في النفقات (ولعلّ له عذراً في ذلك لأسباب صوابية) . وبداعي إنقاص عدد المأمورين في مستهلّ عهد تكوين المكتبة أصابها منهُ اجحاف عظيم ما زلنا نشعر بهِ حتى الآن . ولقد تألمتُ عندما شاهدتُ الوفًا من المجلّدات التي شُحنتْها من اوربا قد حُشرتْ بين الوف المجلّدات المتسقة سابقًا فاختلط الحابل بالنابل وخيّم عليها العنكبوت والغبار . فلم يبقَ أثر للتنظيم الفنيّ الذي بذلتُ في سبيله قصارى الجدّ وسهرت لاجلهِ الليالي الطوال . وصار الآن من الواجب ان يُعاد التنسيق القديم قبل المباشرة بتنسيق الكتب المستجدّة . ولا يخفى ما يتطلّبهُ ذلك من البحث والدقّة والعناء فضلا عن ضياع الوقت

وتشتمل دار الكتب الآن على ستة عشر الف مجلّد تقريبا : منها ثلاثة عشر الفا في اللغات الغربية وثلاثة آلاف في اللغات الشرقية بينها نحو مائتي مجلد مخطوط . ولدينا منها عشر موسوعات « دائرة معارف » ومائة وخمسون معجمًا « قاموس » في مواضيع شتى . كما انها تملك مجاميع علمية عديدة في غاية الخطورة يندر وجودها في دور الكتب الشهيرة . ولا يقلّ الواحد منها عن خمسين او مائة مجلد او تزيد كمجموعة « دالوز » في الحقوق فانها تحتوي على مائة واثني عشر مجلداً ضخماً . ومجموعة « الأبحاث الاوقيانوسية » لأميرموناكو البرت الاول وقد نُشر منها حتى

الآن ثلاثة وستون مجلداً . ومجموعة «جمعية البا حثين عن الآثار العتيقة» التي يرتقي عهد تأسيسها الى مائة وخمس عشرة سنة . ومجموعة «الجمعية الفرنسية لتقدم العلوم» وعدد مجلداتها واحد وخمسون . ومجموعات اكثر المحافل العلمية والفنية والجمعيات الصناعية والاقتصادية . وقس عليها سائر المجامع التي يطول بنا ذكرها في هذه النبذة المختصرة . وتعهد مديرو ثمانين جريدة ومجلة بين عربية وأجنبية ان يرسلوا صحفهم مجاناً بطريقة منتظمة الى دار الكتب البيروتية ليطالعها القراء

وقد زينت جدران هذا المعهد برسوم زيتية كبيرة اهداها بعض اصدقائي أو اهديتها انا وهي تمثل (اولاً) أميري لبنان الكبيرين فخر الدين الثاني المعني و بشير الثاني الشهابي . ثم مشاهير علماء الوطن تخليداً لذكرهم وقدوةً لغيرهم كالشيخ ناصيف اليازجي واحمد فارس الشدياق و بطرس البستاني والشيخ ابرهيم الاحدب والشيخ ابرهيم اليازجي والكنت رشيد الدحداح والشيخ يوسف الأسير وجرجي زيدان والمطران يوسف داود وخليل الحوري والحاج حسين بيهم وسليم البستاني وشكري غانم وسواهم

ومن التحف الجديرة بالوصف التي توفقت لإحرازها أنواط ذات قيمة تذكارية وتاريخية . ومنها ايضاً حبة أرز كتبت عليها سورتان من القرآن الكريم بحروف دقيقة جليّة . وصورة الشاعرة وردة اليازجي مرسومة بقلم اخيها الشيخ ابراهيم . وخلاصة القول ان دار الكتب الكبرى اصبحت قرّة لعيون الناظرين و منهلا عذباً لرواد العلم والمتأدبين . و يقرأ الزائر في صدر قاعة المطالعة هذا الشعر مكتوباً بخط جلي وحرف كبير :

العلم يبني بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيت العز والشرف

وفي ٢٥ تموز سنة ١٩٣٢ جرى الاحتفال (بالتدشين) الرسمي لتأسيس دار الكتب ترأسه فخامة الجنرال غورو بحضور اركان المفوضية العليا وكبار مأموري الحكومة والصحافيين وأهل العلم والوجاهة . فسُرّوا قاطبةً بما شاهدوه من آثار التقدم البادية في معهدنا الكتابي . ولذلك صدر أمر الجنرال المشار اليه باجراء التحسينات والانشاءات في دار الكتب مع تجهيزها بكل ما يلزم لتصبح لائقة بعاصمة لبنان الكبير . . بناءً على ذلك قررت الحكومة ان تنفق عليها ما يقرب من ثلاثة آلاف

ليرة سورية . وقد بوشر العمل وفقا للرسوم التي وضعها المهندسون على غاية ما يرام من سلامة الذوق وحسن الترتيب . ومتى تمّ العمل تصير مكتبتنا في نظامها الداخلي شبيهة بدور الكتب في عواصم البلدان الشهيرة

ولا بدّ لي هنا من التصريح بان ناظر المعارف العمومية الجديد حضرة الاستاذ نجيب بك عبد الملك آلى على نفسه تعزيز دار الكتب بكل الوسائل المادية والمعنوية لفائدة ابناء الوطن والغرباء النازلين فيه . وهو نشيط واسع الاطلاع يتفاءل به خيراً أنصار النهضة الأدبية لزيادة نشر العلوم في هذه الربوع

اما افتتاح المكتبة للمطالعة فلا يتم قبل انجاز تنسيقها الذي جرينا عليه طبقا للتنسيق العشري الحديث المعوّل عليه في مدن اوربا واميركا . ومن المحتمل ان يكون ذلك بعد ستة أشهر بشرط ان تعيّن الحكومة من الآن مأمورين ذوي ضمير وخبرة واطلاع واسع يسهرون معي على محتويات المكتبة وينظّمون لها اللوائح ويسهّلون على المطالعين البحث والتنقيب . فاذا تحقق الأمر تمهّدت هذه المهمة الصعبة التي لا يعرف قدرها الا الذين تعاطوا مهنة تنسيق الكتب . وهذه الطريقة الفنية تكفل لمعهدنا الجديد بنظام سديد مستمرّ يقينا السقوط في العثرات ولا يُندم عليه في الأجيال اللاحقة . سدد الله خطواتنا في سبيل الرشاد انه الكريم الجوّاد

بيروت في ٢١ كانون الثاني ١٩٢٣

فيليب دي طرازي

الفصاحة والبلاغة

قال ابو البقاء : فصاحة المفرد كحسن كل عضو من اعضاء الانسان وفصاحة الكلام كحسن تركيب اعضاء الانسان . والبلاغة الكلام كالروح الذي لاجله يرغب في البدن . . المحسّنات كالزينات . والابلغ من البلاغة الكلام . ومن المبالغة المتكلم . ولا يدرك حسن الفصيح الا بالسمع